

الطلاق

لعل من أمتع المعضلات التي حاول العقل البشري أن يعالجها أيام طفى المنطق الشكلي على غيره من ألوان الفكر هل وجدت البيضة أولا أم الدجاجة! ولعل هذا العقل في جهاده لمعرفة العلة الأولى قد تتبع حلقات الكائنات والموجودات واحدة فواحدة فوجد أنه يتشبه آخر الأمر من حيث بدأ .. فالدجاجة من البيضة ما في ذلك شك .. والبيضة من الدجاجة ما في ذلك شك .. ولكن أيهما أسبق في الوجود ؟ ؟ وكذلك يعن لأصحاب علم الاجتماع أن يتساءلوا أحيانا أنشأت الأسرة من الزواج أم نشأ الزواج من الأسرة .. فنحن نلاحظ في مجتمعنا الحاضر أنه ما من أسرة الا وكانت عمرة لزواج ، وكذلك الحال في سائر الاجتماعات البشرية التي عرفها التاريخ وإن كانت شريعة الزواج تتسع في حقبة أو مجتمع فتدلل ما حرمة حقبة أخرى أو مجتمع آخر .. وأصحاب علم الانسان يؤكدون أن الأسرة قديمة قدم المجتمع البشري بل هي أقدم منه بكثير . فاللدونات العاليا ومنها القردة العظام تحيا حياة عائلية واضحة المعالم والمراسيم يقوم فيها الذكر مع أنثاه أو حرهه وأبناؤه مقام الأب في الأسرة الانسانية من التحذير والحماية والاعالة جميعا ..

ويكذب بعض علماء النفس ما ذاع أخيرا على يد تلاميذ فرويد والمسرفين في تفسير مذهبه من أن الجماعة الانسانية قد صر عليها حين من الدهر كانت تعيش فيها عبث لإباحة واختلاط لا تعرف المحارم . ذلك لأن الغير، وهي أصل من أصول الأثرة والحيازة والمالكية موجودة بين ذوات الأربع في كثير من الحيوان وما يعيننا بطبيعة الحال أن نعرف هل قامت الأسرة في تلك العصور السحيقة عن زواج له قواعد ورسوم أم لم تتم .. ولكن الذي يعيننا أن شعائر هذا الزواج وشراؤه متمكنة من النفس البشرية منذ عهد لا ندرك كنهه . . . وأنه قام لتنظيم هذه العلاقة التي تمس أصلا من أقوى الأصول في الحياة وهو حفظ النوع البشري فهو ينظم العلاقة بين شريكين كل منها قبل الآخر . وينظم هذه العلاقة قبل ما يصدر عنها من نسل ثم هو بعد هذا كله ينظمها قبل المجتمع . . . وإذا كان الزواج ينظم الانتخاب الطبيعي بين الجنسين قدر الطاقة فان الطلاق جاء ليحل ارتباطا قام بلا انتخاب طبيعي لضرورة من الضرورات أو نزعة من النزعات ، وهذا هو الأصل الطبيعي فيه وإن رفضته بعض الجماعات أو خرجت به بعضها الآخر عن هدفه وصرماه .. ولعل من الخبير أن نتبع صنيع الأمم والشعوب على اختلافها في الطلاق وموقفها منه حتى تبين الحكمة فيه فيقال إن الطلاق مجهول عند الصيادين المنحطين . . . والمزارعين البدائيين نادر الحدوث عند غيرهم .. في حين تسرف بعض القبائل فيه حتى أصبح الزواج عندهم

قصير الأمد يطلق الرجل زوجته متى شاء ، ونطلق المرأة زوجها متى شاءت ... أما أسباب الطلاق في تلك المجتمعات البدائية فأهمها الخيانة والعقم والمجر والعجز عن إعالة الزوجة والبنين .
ونحن نضرب صفحا عن غرائب السنن والعادات كتطليق المرأة زوجها في إفريقية الوسطى لإعراضه عن حياكة ملابسها !!! ...

أما الثقافات فالأمر عندهم أوضح .. فالقانون الصيني يبيح للرجل أن يطلق زوجته إذا لم يتجب ولدا وإذا لم تحترم أهل زوجها أو لحسدها وغيرها أو لثرتها وحقيها .
وكان الساميون يبيحون الطلاق حتى جاء الإسلام فنظم الطلاق وجعله أبغض الحلال عند الله ...

أما الهندوس فالزواج عندهم فرض ديني لا سبيل الى الخلاص منه ... فاذا أتمت الزوجة تلتفظها طائفتها . وينبذها أهلها . ولكنها تنزل مع ذلك في منزل زوجها في صرتبة الجوارى والخدم ..

فاذا انتقلنا الى الآريين وجدنا اليونان والرومان يقدسون الزواج ولكنهم ما إن تقدموا في مدارج الحضارة حتى شاع الطلاق بينهم وقد أنبأنا التاريخ أن معظم النساء في عهد شيشرون قد طلقن ... ومن الفكاهات المأثورة أنهن كن يؤرخن الحوادث بأزواجهن فيقوم العام الأول للزوج الثاني أو الثالث وهكذا ...

ويطلق الرجل التوتوني امرأته لعقمها أو للاشتباه في سلوكها ...

وأخذت الكنيسة المسيحية في أوروبا تقيد الزواج وتعتبره أصلا من أصول الدين ولكنها سمحت بالطلاق إذا لم يكن الزواج شرعيا في مستهله فلما جاء عصر الإصلاح الديني صرح بالطلاق وسمح للبرئ من الزوجين بالزواج مرة أخرى وأعطوا السلطة المدنية حق الحكم بالطلاق إذا رأت ما يدعو إليه ... ومن الكلم المأثورة ما قاله "جفرمن" عما نتج عن تحريم الطلاق ...

« عاش أبائنا أجيالا عدة تحت قانون زواجي لا مثيل له في الشذوذ والضيق إذ أغلقت أبواب الخلاص من الزواج ولم يبق مفتوحا منها غير باب الموت حتى كثرت التعاليل وتعدد الطلاق الصناعي فاذا جاء الإصلاح ألغى الزيجمات المؤسسة على الخديعة والفسح والادعاء بحيث لا يستطيع الرجل التخلص من عقد الزواج إذا أقسم أنه ابن عم زوجته البعيد أو أنه أحب أختها أيام الشباب أو كان صرافا لأحد أقاربها » وظهر في إنجلترا أيام القرن السابع عشر لون طريف من ألوان الطلاق هو « الطلاق البرلماني » الذي لم يكن يسمح به إلا للخيانة بعد دفع نفقة باهظة قد تبلغ آلاف الجنيهات .

أما في العصر الحديث فقد كاد يقضى على الفكرة القائلة بجمود الزواج وعدم قابليته للحل على تفاوت بين السعة والضيق ، ذلك أن الثورة الفرنسية أسبغت فلسفتها على كل شيء فأباححت الطلاق في فرنسا الكاثوليكية واعتبرته سمة من سمات الحرية الفردية في حين تحرم كارولينا الطلاق مع أنها بروتستانتية المذهب ، بل إن أحد الكتاب المحدثين قد علق على اختلاف الولايات المتحدة الأمريكية في أمر الطلاق بقوله : " إن الولايات المتحدة - غيرمتحدة في أمر الطلاق " .

ومهما يكن من شيء فإن أسباب الطلاق كلها تنحصر في الاضرار بالشريك بالخيانة والفسوق أو العجز عن تكاليف الزواج من العقم وعدم الثقة وما إليها .

ونحن إذا نظرنا إلى نسبة شيوع الطلاق موزعة على الأمم والشعوب وجدنا سويسرة أكثر اقبالا على الطلاق من سائر الدول الأوروبية ... وهو في الولايات المتحدة أكثر منه في سويسرة ، بل أكثر منه في الدول الأوروبية مجتمعة ...

وكثيرا ما نقرأ في الصحف الأمريكية أن إحدى السيدات طلبت الطلاق لأن زوجها لا يأخذها في سيارته للذهاب أولا يعود إلى منزله قبل العاشرة وإذا عاد أمضى الوقت في الثرثرة التي لا تفيد !!! ! !

ومن البديهيات عند أصحاب علم النفس الاجتماعي أن حوادث الطلاق تزداد مع حوادث الانتحار، وهذا يدل على أن المجتمع الذي يفسد فيه مجتمع متقلقل تضيق فيه الصدور وتلبل الأوضاع وما من شك في أن الوقوف في وجه تشبه لا يكون إلا باصلاح الزواج نفسه بحيث يصبح واقيا بالفرض منه محققا للانتخاب الطبيعي ...

وأنا لا أوافق على الفكرة الشائعة التي تقول إن الطلاق عدو الزواج، فإذا سهل الحصول عليه كان ذلك سببا في هدم الحياة العائلية ، وأرى أن الطلاق على العكس علاج ضروري للزواج الشاذ ووقاية حتمية من النكبات التي تعصف بالأسرة ويضع حدا للاتحاد الذي يقدم عليه من لا يفهم معنى الزواج ...

عبد الحميد يونس

عضو لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية